

النخبة الجزائرية أواخر العهد

العثماني ورؤيتها للآخر

ابن العنابي نموذجا

الأستاذة عائدة حباطي

جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

يعتبر القرن 19 من القرون الفاصلة في تاريخ العالم الحديث، لما شهدته من التطورات والإنجازات عكست التحولات التي كان لها الأثر في تكوين الأسس الاجتماعية والاقتصادية والفلسفة والسياسة، إلا أن ذلك لا يعني انفصاله عما قبله؛ فما القرن 19 إلا نتيجة لتقلبات العصور السابقة، تجلت فيه مظاهر تناقض حضارتين، لطالما كانت القطيعة هي الصفة الغالبة بينهما، والتي ترجمت في أشكال متعددة، ففي حين بدأت شعوب الغرب المسيحي تعرف بداية انتصار مبدأ الديمقراطية وسيادة الشعوب، وشهدت انقلابات اقتصادية، وقبل ذلك شهدت ثورة فنية وفكرية فلسفية، دأبت على نقد الواقع الاجتماعي والسياسي وأفرزت واقعا جديدا¹، بدأت فيه أوروبا تشق طريقها نحو الحركة الاستعمارية. حينها كانت البلاد العربية تأن تحت حكم الأتراك الذين تجاهلوا تطورات العصر، فأغرقوا الولايات العربية في فساد سياسي وعسكري وسكونية غيبت العقل وعلوم العصر، وهو ما دفع بعضا من النخبة الفكرية أواخر العهد العثماني لنقد هذا الواقع والسعي لتغييره، فعادة يكون الوعي بالتاريخ والتغيير من سمات النخب السياسية الفكرية، وقد جاءت الكتابات العثمانية المهمة بتاريخ الأفكار في عهد الجزائر

¹ محمد قاسم وحسين حسني: تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا منذ عهد الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العظمى، ط.6، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، (المقدمة).

العثمانية بأسماء كانت لها محاولات فكرية، كالشيخ عبد الكريم (988-1073هـ/1580-1662م) الذي عاب على المتصوفين تصرفاتهم ووصفهم بالزندقة والخروج عن الصواب بتقديس الشيوخ وإقامة الحضرة والوسائط، فاعتبرهم من المتطفلين على الدين. كما طرح عبد الكريم المغيلي (790-909هـ/1425-1505م) أفكارا سياسية حول الحكم والسياسة¹. كذلك نادى الشيخ بن عمارة البوني بحرية الرأي وحث على استعمال العقل وعدم التحرج من مخالفة الأوائل وانتقد التقليد. وبادر ابن حمادوش في احياء العلوم العقلية من خلال جهوده في علم الطب والفلك والرياضيات. وبدوره قدم ابن العنابي (1775-1850م) أواخر العهد العثماني أفكارا قوية في الإصلاح السياسي والاجتماعي، وهو محور هذه المداخلة التي ستعنى برؤية النخبة للآخر. وقبل هذا نود أن نقف عند الآخر الذي يقابله على الأكد الأنا أو نحن، وهو من المصطلحات الجدلية التي أثارت ولا تزال تثير إشكالات بحثية عند الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع، يقوم على تصنيف استبعادي يقتضي إقصاء كل ما لا ينتمي إلى الفرد والجماعة سواء في القيم الاجتماعية أو الأخلاقية أو السياسية أو الثقافية². ومصطلح الاستبعاد هنا يحمل معنى التصنيف في دلالاته ومعنى الاختلاف والغير المخالف للأنا فكريا وعقائديا ويقترن عادة مصطلح الأنا والآخر بمقابلة الثقافات والحضارات من حيث الالتقاء والتقاطع الفكري أو والنفور.

1-وجه المغيلي رسائلًا وفتاوى للأمير كانو محمد يعقوب المعروف برؤفت تحت عنوان "مجموعة في أمور الإمارة وسياسة الدولة" والتي طبعت تحت عنوان تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، تح. محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، 1994. وكتب وصية أخرى لنفس الأمير بعنوان "ما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام".

2-نجم عبد كاظم: نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2014، ص39.

وبالنسبة لنا في هذا المقام يمثل لنا ابن العنابي وفكره خلال أواخر العهد العثماني الأنا ومنتساءل عن الآخر الذي يختلف عن محيطه الفكري؟ فهو محمد بن محمود بن محمد بن حسين بن محمد المعروف بابن العنابي¹ الفقيه والقاضي الحنفي الذي تولى مناصب حساسة في السلطة في مرحلة حرجة من تاريخ الجزائر وهو الربع الأخير من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر وهي فترة اللاستقرار السياسي والفكري استشرى فيها الفساد على جميع الأصعدة، فقد عاش ابن العنابي في بيئة عرفت ضعف السلطة العثمانية الوصية، حيث شهدت الفترة الأخيرة من الحكم الدايات (1805-1830) نهاية هذا الحكم في الجزائر، بعد الانتفاضات الداخلية وتدهور الحياة السياسية والعسكرية مما كان له آثارا سلبية على الأوضاع العامة، تفاقم مع الحملات المتتالية التي كانت تشنها الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية². انتهت باحتلالها (1830)، وهو الواقع الذي حاول ابن العنابي التنبيه إليه في كتاباته وفتاويه، الذي حاول فيها تجاوز التنظير إلى تقديم مشروع حضاري قوامه إصلاحات سياسية وعسكرية، ونقد الواقع السكوني يأبى الانفتاح على العصر فكان مجددا ابن عصره لا بيئته التي تسعى لتحنيط الفكر بالتكرار والتقليد، فقد نشر ابن العنابي فكريا يضمن للتراث والحضارة الإسلامية الاستمرارية والحيوية. وهو ما أشاد به معاصروه؛ كعبد الحميد بك في قوله: "كان إماما فاضلا عارفا بالعبادات والأحكام في المذاهب الأربعة على اختلافها...وعالما في باقي المنقول

1- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط.2، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، 1980، ص.254.

2- للمزيد أرزقيشويتام: نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800_1930، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، مصر، 1988.

والمعقول والسياسات العمومية والخصوصية الخارجية والداخلية¹ وشريف الزهار² وحمدان بن عثمان خوجة³، ومن حكام مصر وتونس الذين أحسنوا وفادته، ووصفته الدراسات المعاصرة بالمجدد الذي يحق للجزائر أن تفتخر به وبأمثاله كحمدان خوجة اللذين سبقوا علماء العرب والإسلام في طرح قضية التجديد والإصلاح الاجتماعي والسياسي قبل أن يطرحها أمثال الطهطاوي⁴ والافغاني ومحمد عبده⁵.

وقد تجلت رؤية ونظرة ابن العنابي للآخر الذي كان جزءا من رؤيته العلمية أو محيطه العام، أو حتى من خارج محيطه وهو ما نحاول توضيحه في نقاط أربع:

أولا: السلطة السياسية.

ثانيا: دعاة الزندقة .

ثالثا : المذاهب الفقهية

1-أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد محمد بن العنابي صاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود، ط.2، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ص.7.

2-أحمد شريف الزهار: مذكرات أحمد شريف الزهار، تح. أحمد توفيق المدني، م7، عالم المعرفة، الجزائر، 2010، ص.125.

3حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تح. محمد العربي الزبيري، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975، ص259.

4- صرح حسن العطار (1180-1250/1766-1835م) عند توليه مشيخة الأزهر بالقول: "إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس بها" للمزيد: علي مبارك الخطط التوفيقية، ط.1، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، 1305هـ، ص.39. وكان رفاعة رافع الطهطاوي الذي عادة من تنسب له طلائع النهضة المشرقية، قد أرسل على رأس البعثة الطلابية إلى باريس سنة 1826، وهي السنة التي كتب فيها ابن العنابي كتابه السعي المحمود، في حين كتابه تخلص الإبريز في تلخيص باريس قد كتبه بعد خمس سنوات من الرحلة.

5-أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص.17.

رابعاً: الغرب.

فأما علاقته بالسلطة الحاكمة التي تحمل في مدلولها العام معنى خضوع الأفراد والجماعات، وفي نفس الوقت معنى السيادة التي مثلها في أواخر العهد العثماني الدايات، وهي الفترة التي تولى فيها ابن العنابي منصبا حساسا في السلك الوظيفي كقاضي ومفتي، فكان بذلك قريبا من دايات الجزائر منذ عهد الداوي بابا حسن (1205هـ/1791-1798م) إلى غاية حسين بن علي (1233-1246هـ/1818-1830م). وعلى خلاف من عاصروه لم يسع ابن العنابي إلى المنصب بالرشوة ولا المداينة، وإنما بلغه بفضل أسرته التي كانت قد توارثته أبا عن جد منذ مقدمها إلى الجزائر، إلى جانب منزلته العلمية التي أهله لذلك. ولم يجري الحكام في فتاويه، والتي كانت سببا في إبعاده عن منصبه (1210هـ) بسبب نزاع شرعي بينه وبين المفتي المالكي حينها. وقد أبدى ابن العنابي تعاونا مع الحكام كلما استدعت الحاجة؛ فلعب أدوارا سياسية ودبلوماسية، إلى جانب آخر دايات الجزائر، فكان موفدا لداوي كسفير إلى المغرب ورئاسة نقابة الأشراف. وكلف بالكتابة إلى باي تونس. ثم السفارة إلى قسطنطينية وطرابلس الغرب (1232هـ-1817م) على إثر الغارة البريطانية على الأسطول الجزائري. وبدورهم أبدى الدايات عناية بأهل الحضر وكانوا الأقرب إلى السلطة؛ كمعاونين لهم في الإدارة والتسيير؛ كالأعيان والعلماء. فكانت العلاقة متعددة ومستحكمة بين الطرفين. فابن العنابي يرى أن من حق الحاكم على الرعية الطاعة والولاء والسرعة في الاستجابة مالم يأمر بمعصية، ومن حق الرعية عليه أن يحسن اختيار أعوانه، وقرن الطاعة بأهلية الحاكم للمنصب وتحقيق العدل حتى يضمن الانقياد الظاهري والباطني ويجنح عن النفاق¹. ويبدو أن ابن العنابي قد وقف مع هذه الرؤية

1- بن قنية عمر: الرؤية الفكرية في الحام والرعية لدى ابن المقفع وابن العنابي والكواكبي، ط1. دار أسامة للنشر، عمان، الأردن، 2000، ص. 60.

عند إحدى أهم أسباب تراجع العثمانيين في الجزائر الذين تغافلوا عنها. في حين بدأت تتجلى في الغرب الذي تبني مبادئ الحكم الديموقراطي في أنظمتها السياسية.

بينما اعتبر الباب العالي رمزا للوحدة التي تجمع البلاد العربية، وعبر عن ولائه لها ولسلطانها ممن عاصروهم، وبصفة خاصة السلطان محمود الثاني (1785-1839). إلا أنه كان يعيب عليه ذلك التدخل السافر للجيش الإنكشاري في الأمور السياسية، دون أن يوضع له حدا، رغم أنه كان وراء بعض الأزمات على مستوى السلطنة، كثورتهم في 1223هـ-1808م من أجل إرجاع السلطان مصطفى الرابع الذي كان بمثابة الألعبوبة في أيديهم، وامتد هذا التدخل في باقي إيالاتها. وهو الأمر الذي جعل ابن العنابي يدعو لعزل هذا الجيش عن الحياة السياسية والتدخل في شؤون الرعية، والاكتفاء بالأدوار المنوطة به. وبدوره بادر السلطان العثماني بحله (1826)، بعد أن عاثوا استبدادا بموافقة رجال الدولة وعلمائها.

بينما تجاوزت علاقة ابن العنابي بمحمد علي (1769-1849م) الحدود الرسمية التي تحددها علاقة الحاكم بالموظف إلى اعجاب متبادل، تقاطع كلاهما في نظرتهم للحدثة والتغيير؛ فكانت الإصلاحات العلمية والتعليمية التي أدخلها محمد علي على مصر رغبة منه في تحديثها وبلوغ شأن الغرب الذي كانت له قفزات في هذا الميدان. وقد مكنته الحملة الفرنسية على مصر والشام من الاطلاع على ما بلغه الغرب، إلى جانب البعثات الطلابية والإرساليات التبشيرية، التي عرّفت محمد علي باتساع الهوة بين الطرفين، فوجد ذلك هوًا في نفس ابن العنابي نزيل مصر. وهي الفترة التي تقارب فيها الرجلين بعد أن ولي الأخير منصب الفتوى على المذهب الحنفي. وكان ذلك أيضا من الأسباب المباشرة التي مكنته من تأليف كتابه السعي المحمود في

تنظيم الجنود سنة (1826). وهو نفس تاريخ حل السلطان العثماني الجيش الانكساري الذي تقاعس عن دوره الحقيقي.

ومن جهته أرجع أبو القاسم سعد الله هذه العلاقة في تنقيحاته للطبعة الثانية من كتاب رائد التجديد الإسلامي إلى كونهما ينحدران من نفس المنطقة وهي ألبانيا، على ما ذهب إليه أحمد ساسي البوني في أعلام الأخبار¹. على خلاف الأغلبية التي نسبت عائلة ابن العنابي إلى أزمير التركية².

ومهما كان من أمر فإن علاقة ابن العنابي بالسلطة السياسية في مصر قد ساءت بتغير الوالي، فبتولي الخديوي عباس (1265هـ) عزل عن منصبه ليتفرغ للتأليف³. على قلة تأليفه⁴ مقارنة بفتاويه ورسائله وإجازاته.

وبذلك فإن ابن العنابي لم يعرف الغرب بشكل مباشر، فلم يطلع على كتابات فولتير وروسو... ولم يسافر كـ بعض أعلام النهضة إلى الغرب.

أما رؤيته لدعاة الزندقة من أصحاب البدع والخرافات، الذين قيدوا الفكر وغلو في التصوف المغشوش، وأصبحوا أواخر العهد العثماني يمثلون سلطة روحية، بتشجيع من السلطة المركزية، لسكين الواقع بإغراقه في الخرافة، فكدرروا على الدين صفائه وانفتاحه، وهو ما دفع ابن العنابي إلى انتقادها⁵، بل أن بغضه لهذا الغلو قد جعله يؤيد أية حركة بإمكانها أن تقمع هذه التصرفات الهجينة عن أصول الإسلام، فأعجب بالوهابية وفكرها

1- هو أحمد بن قاسم بن محمد بن ساسي التميمي البوني، (1063-1139هـ / 1653-1726م) من كبار فقهاء المالكية ومن علماء الحديث. لترك العديد من الآثار. للمزيد ينظر صالح بوبشيش: المدارس الفقهية في الجزائر خلال الحكم العثماني، الملتقى الوطني الأول، المذهب المالكي في الجزائر، 21-22 أبريل 2004م ص. 147.

2- أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد، المرجع السابق ص. 7.

3- المرجع نفسه، ص. 11.

4- المرجع نفسه، ص. 99-102.

5- المرجع نفسه، ص. 122.

القائم على تهديم مظاهر الشرك والوثنية التي حملها هؤلاء الغلاة. على خلاف بعض معاصريه كأبي راس الناصري (1165-1238هـ/1751-1823) الذي اعتبر الوهابيين من الخارجين عن المذاهب الأربعة في الفروع وأما في العقائد فهم على عليه الإمام أحمد¹، ولم يؤيد مواقفهم المتشددة في مواقفهم المتشددة في مقاومة الطرق الصوفية وتهديم أضرحة الأولياء الصالحين.²

ولم يكن ابن العنابي متحجرا أيضا في آرائه الكلامية، فكان يتبنى الموقف الذي يستوفي الدلائل الشرعية والعقلية، كموقفه من مسألة رؤية الله تعالى يوم القيامة، وهي مسألة شائكة بين المعتزلة والأشاعرة. وموقفه من التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبالصالحين التي كان قد أجازها قبل ذلك، إلا أنه تراجع عن ذلك. ويكون للوهابية في هذا التحول الأثر الغالب.

ولم يكن أيضا ابن العنابي يبدي تحيزا لمذهب معين رغم أنه كان فقيها حنفيا، إلا أن ذلك لم يمنعه بأن يكون منفتحا على كل المذاهب الفقهية، فقد سبق الإشارة إلى إعجابه بالوهابية القائمة في أساسها على المذهب الحنبلي. كما أثبت تعايشه مع المذهب المالكي الأكثر انتشارا في الجزائر. فكانت مؤلفاته بأسلوب سهل، يجيب فيها على أسئلة بدقة تعتمد على التأويل والتخريج والتعليل³، مستعينا بأدلة نقلية وعقلية في القضايا التي تعتريه.

1- محمد بن أحمد أبي راس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج.1، تح. محمد غالم، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، الجزائر، (د.ت)، ص18

2- المصدر نفسه، ص.18.

3- أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق، ص.30-31.

وقد كان كتابه صيانة الرئاسة ببيان القضاء والسياسة، الذي كتبه بأمر من محمد علي والي مصر، بهدف وضع حد لبعض الممارسات، قد جمع فيه الراجح من الأحكام طبقا للمذاهب الأربعة.

بينما كانت رؤيته للغرب تعرف بعض الاستثناءات، حيث دعا على خلاف بقية علماء عصره وفي وقت مبكر سابق للنهضة الفكرية في المشرق إلى الانفتاح على الغرب خاصة فيما يتعلق بالجانب العسكري، دون أن يتجاوز هذا التقليد ما يمس العقيدة الإسلامية، قد ضَمَّن هذه الأفكار في رؤيته للآخر كتابه السعي المحمود الذي وجد بيئة مناسبة لطبعه ونشره، وهي مصر التي كانت تعرف في ولاية محمد علي انفتاحا على النظم السياسية الغربية، وتطلع لإحداث إصلاحات عسكرية في الجيش تتلاءم مع الواقع الجديد، وقد أحدث الكتاب ثورة فعلية في وسط الجامدين والمنغلقيين الذين سعوا إلى خنق الإبداع والتقدم.

لكن ابن العنابي مع ذلك كان حذرا في التنبيه إلى كيد الكفار الذين يبطنون للإسلام والمسلمين العداوة، وقد تجلّى هذا التنبيه عند دخول الفرنسيين، فلم يكتف ابن العنابي بالتنبيه وإنما حاول الدفاع عن الأوقاف الإسلامية أمام تعدي الجنرال كلوزيل عليها، فكان يرأسله ويوجه له انتقادات مذكرا إياه بمذكرة الاستسلام. إلى جانب تشجيع الأهالي على مقاومة هذا الدخيل. يبدو أن ابن العنابي كان على دراية بمشروع فرنسا في إيجاد اسلام فرنسي¹. وهي مواقف جعلت فرنسا تسلط عليه عقوبة السجن وبعدها النفي².

1- أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق، ص.40

2- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، من 1830-1837، ج4، دار الأمة، الجزائر، 2014، ص.354.

وفي ختام يمكننا أن نستخلص أن ابن العنابي يعد من النخب
الفقهية والسياسية الذي لعب إلى جانب أسرته دورا هاما في حياة الجزائر
العثمانية، فكانوا من المرافقين للمذهب الحنفي، وقد تميز عنهم بأن كان ابن
عصره لا بيئته، سعى إلى تغيير واقع المجتمع وفكر الحكام، لكن دون تجاوز
أصول الدين. وقد لعب ابن العنابي بصفته قاضيا ومفتيا دورا هاما في
ترشيد وإصلاح مفاصل بيئته، كما قدم حلا لمشاكل الحكام وحافظ على
المبادئ الإسلامية في مواجهة الشعوذة والبدع، كما كان ابن العنابي من
النخبة الجزائرية التي ربطت الفكر العربي في المشرق والمغرب بتقديم مشاريع
حضارية تقوم على إصلاحات سياسية وعسكرية واجتماعية.